محاضرات في التفسير اللغوي موجهة للسنة الثالثة ليسانس لغة ودراسات قرآنية.

مختصرة من الكتاب المبرمج: التفسير اللغوي للقرآن الكريم لمساعد سليمان الطيار.

ثانياً: التَّفسيرُ اللُّغويُّ عند اللُّغويين.

وفيه:

القسم الأوَّلُ: المشاركةُ غيرُ المباشرةِ في تفسيرِ القرآنِ.

القسم الثاني: المشاركةُ المباشرةُ في تفسيرِ القرآنِ.

اللغويون: هم المشتغلون بجمعِ ألفاظِ العربِ ومعرفةِ دلالتِها واشتقاقِها وتصريفِها، ومعرفةِ أساليبِها في الخطابِ، والاستدلالِ لذلك بلغةِ العربِ من شعرٍ أو نثرٍ، وقد **برزوا في القرنِ الثَّاني** الهجريِّ، وكانَ ظهورُهم إيذاناً ببروزِ هذا التَّخصُّصِ العلميِّ الذي لم يكنْ ينسبُ قبلهم إلى أعلامٍ في جيلِ الصَّحابةِ والتَّابعين.

ومشاركة اللُّغويينَ في التفسيرِ كانتْ على قسمين:

الأول: مشاركة غير مباشرة في تفسيرِ القرآنِ.

تَبْرُزُ مشاركةُ اللُّغويينَ غيرُ المباشرةِ في أنماطِ التَّأليفِ اللُّغويِّ التي سلكَها اللُّغويونَ في الكتابةِ اللُّغويَّةِ، وكانتْ كتبُ النَّوادرِ من أقدمِ ما ظهر مِنْ أَنْماطِ التَّأليفِ اللُّغويِّ .وكان أبو عَمْرو بنُ العلاءِ (ت:145) أوَّلَ مَنْ ذُكِرَ له كتابٌ في النَّوادرِ.

وقد كانتِ الكتابةُ في هذه الأنماطِ اللُّغويَّةِ على ضَرْبَين:

الأول: الكتابةُ على أسلوبِ الموضوعاتِ ككتبِ: الفروقِ، والنوادرِ، والأضدادِ، والنباتِ، وخلقِ الإنسانِ، والأنواءِ، ...وغيرِها.

الثاني: الكتابةُ على الحروفِ: كانت البدايةُ فيها بكتابِ العينِ المنسوبِ للخَلِيلِ بن أحمد (ت:175)، ثمَّ تَلَتْهُ الكتبُ الأخرى، ومنها: كتاب الجِيمِ، لأبي عَمْرو الشَّيبانيِّ (ت:220 تقريباً) (2)، وكتابِ البارعِ في اللُّغةِ، للْمُفَضَّلِ بن سَلَمَةَ (ت:290).

كيفَ كان التَّفسيرُ اللُّغويُّ في هذين الضَرْبَينِ من الكتابةِ، معَ ذكرِ الأمثلةِ لذلك؟

أولاً: التفسيرُ اللغويُ في كتبِ الموضوعات:

1 - يظهرُ منْ كتبِ اللُّغةِ التي كُتِبَتْ على نَمَطِ الموضوعاتِ **أنَّ التَّفسيرَ لم يكنْ قَصْداً أوَّلِيًّا** منْ مقاصدِ اللُّغويِّ في كتابه.

2 -غالبُ ما جاءَ في التَّفسيرِ كانَ **تفسير ألفاظٍ قرآنيَّةٍ مفردةٍ**، يَذْكُرُ فيها اللُّغويُّ دلالةَ هذه اللَّفظةِ، ومن ذلك قول أبي العَمَيْثَلِ (ت:240) ، قال: «والجُؤَارُ ــ مهموز ــ : صوتٌ في تَضَرُّعٍ، ومنه قوله تعالى: {**فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ**}.

3 -**غالباً ما يذكرُ اللُّغويُّ معنى اللَّفظةِ في لغةِ العربِ**، ثمَّ يذكرُ الآيةَ التي وردَ فيها هذا اللَّفظُ، فيفسِّر لفظَ الآيةِ به، ومن ذلك ما ذكره قُطْرُبَ (ت:206): «وقالوا ــ إذا دَنَا ولادُهَا ــ: بَخَضَتْ بَخَاضاً، ومَخضَتْ: لغةٌ، وهو قول الله عزّ وجل: {**فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَخْلَةِ**}.

ثانياً: التفسير اللغوي في معاجم الحروف:

يُعدُّ كتابُ العينِ أوَّلَ معجمٍ عربيٍّ سارَ في ترتيبه على الحروفِ، والملاحظة العامة على أصحاب هذا المؤلفات أنهم يذكرُون ألفاظاً قرآنيَّةً ويقومُون بتفسيرِها، أو قد يوردُون اللفظَ القرآنيَّ دونَ ذكرِ الآيةِ التي وردَ فيها.

من أمثلةِ تفسيرِ الألفاظِ في كتابِ العينِ، ما يلي:

1 - قال: «والمُعْصِرَاتُ: سحاباتٌ تمطرُ، قال الله تعالى: {**وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا**}.

وأُعْصِرَ القومُ: أُمطِرُوا، قال الله عزّ وجل: «وفيه يُعْصَرُونَ» [يوسف: 49]، ويقرأ {يُعْصِرُونَ}: من عصيرِ العنب.

قال أبو سعيدٍ: يستغلونَ أَرَضِيهِم؛ لأنَّ اللهَ يُغْنِيهم، فتجيءُ عصارةُ أَرَضِيهم؛ أي: غلَّتها؛ لأنك إذا زرعتَ اعتصرتَ من زرعِك ما رزقَك اللهُ.

والإعصارُ: الرِّيحُ التي تُثِيرُ السَّحابَ. **عصرَت** الرِّياحُ، فهي مُعْصِراتٌ؛ أي: مثيراتٌ

للسَّحابِ.

والإعصارُ: الغبارُ الذي يستديرُ ويسطعُ.

وغبارُ العجاجةِ **إعصارٌ** أيضاً، قال الله عزّ وجل: {**فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ**} [البقرة: 266]، يعني: العجاجة».

2- قال: «والهَجْرُ والهِجْران: تركُ ما يلزمك تعهُّدُه، ومنه اشتُقَّتْ هجرةُ المهاجرين؛ لأنهم هجروا عشائرهم فتقطَّعُوهم في الله، قال الشاعر

وأُكثِرُ هَجْرَ البَيتِ حَتى كأنَّني ....مَلَلْتُ، وما بي من مَلَالٍ ولا هَجْر

وقال تعالى: {**إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**} [الفرقان: 30]؛ أي: يهجرونني وإيَّاه.

وقال تعالى: {**مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ**} [المؤمنون: 67]؛ أي: تهجرون محمداً صلّى الله عليه وسلّم.

ومن قرأ {تُهجِرونَ} ؛ أي: تقولون الهُجْرَ؛ أي: قولَ الخَنَا والإفحاشِ في المنطقِ، تقولُ: أَهْجُرُهُ إهْجَاراً، قال الشَّمَّاخُ :

كمَاجِدَةِ الأعْرَاقِ قَالَ ابنُ ضَرَّةٍ.............عَلَيْهَا كَلاَماً جَارَ فيه وأَهْجَرَا.

والهَجْرُ: هذيانُ المُبَرْسَمِ ودأبُه وشأنُه، ويقال: منه {**سَامِرًا تَهْجُرُونَ**} [المؤمنون: 76]؛ أي: تَهْذُونَ في النَّومِ.

القسمُ الثاني: المشاركة المباشرة في تفسير القرآن.

يقول مساعد الطيار: "بعدَ قراءةٍ في تراجمِ اللُّغويِّين وجملةٍ من فهارسِ الكتبِ، ظهرَ لي أنَّ مشاركتَهم المباشرةَ في التَّفسيرِ برزتْ منْ خلالِ علمين: **علم غريبِ القرآن، وعلمِ معاني القرآن**. وقد تَتَبَّعْتُ كتبَ اللُّغويين المؤلَّفةِ في هذين العِلْمَينِ إلى نهايةِ القرنِ الثالثِ، فظهرَ لي منها ما يربو على العشرينَ مؤلَّفاً منها:

1 -غريبُ القرآنِ، لأبانَ بنِ تغلبٍ الجَرِيرِيِّ، القارئ، النَّحويِّ، اللُّغويِّ (ت:141).

2 –معاني القرآنِ، لمحمدِ بنِ الحسنِ الرُّؤاسِيِّ، الكوفيِّ، المقرئ، النَّحويِّ، اللُّغويِّ (ت:170).

3 – معاني القرآنِ، ليونسَ بنِ حبيبٍ، البصريِّ، النَّحويِّ (ت:182).

4 – معاني القرآنِ، لعلي بنِ حمزةَ الكسائيِّ، الكوفيِّ، النَّحويِّ، اللُّغويِّ، أحدِ القرَّاءِ السَّبعةِ (ت:183 وقيل غيرها).

5 – غريبُ القرآنِ، لِمُؤَرِّجِ بْنِ عَمْرٍو السَّدوسيِّ، البصريِّ، النَّحويِّ، اللُّغويِّ (ت:195).

طريقةُ التَّفسيرِ اللُّغويِّ في هذه الكتبِ:

إنَّ اللُّغويِّينَ سلكوا في هذه الكتبِ مسلكَ السَّلفِ في التَّفسيرِ اللُّغويِّ، فظهرَ عندهم التَّفسيرَ على المعنى، وعلمَ الوجوهِ، وأسلوبَ التَّفسيرِ اللَّفظيِّ. غيرَ أنَّ هذا الأخيرَ هو الغالبُ على التَّفسيرِ اللُّغويِّ عندَ اللُّغويِّين، والأولانِ لا يشكِّلانِ شيئاً كثيراً عندهم.

ما زاد عن السَّلفِ من البحوث في مسائل العربيَّةِ في التَّفسيرِ عند اللُّغويِّين.

أولاً: كثرةُ مباحثِ الصَّرفِ والاشتقاقِ.

ثانياً: كثرة المباحث النحوية.

ثالثاً: كثرةُ الاستشهادِ منْ لغةِ العربِ.

رابعاً: بيانُ الأساليبِ العربيَّةِ الواردةِ في القرآنِ.

أثرُ التَّفسيرِ اللُّغويِّ في اختلافِ المفسرينَ:

نشأ الخلافُ في التَّفسيرِ نتيجةً للاجتهادِ فيه، وقد يكونُ الخلافُ **بسببِ الاختلافِ في اعتمادِ المصدرِ**، فهذا يفسِّرُ معتمداً على حديثٍ نبويٍّ، وذاك يفسِّر معتمداً على اللُّغةِ. كما قدْ يحدثُ **الخلافُ في الاعتمادِ على المصدرِ الواحدِ**، وأكثرُ ما يقعُ ذلك في مصدرِ اللُّغةِ، وذلك راجعٌ إلى الاحتمالِ اللُّغويِّ الذي يَرِدُ على النَّصِّ القرآنِيِّ.

ومن الخلافَ الذي نشأ في التَّفسيرِ اللُّغويِّ بسببِ اختلافِ دلالةِ اللَّفظِ في اللُّغةِ ما يأتي:

أولاً: الاختلافُ بسببِ الاشتراكِ اللُّغويِّ في اللَّفظِ.
ثانياً: الاختلافُ بسببِ التَّضادِّ في دلالةِ اللَّفظِ.
ثالثاً: الاختلافُ بسببِ مخالفةِ المعنى الأشهرِ في اللَّفظِ.
رابعاً: الاختلافُ بسببِ أصلِ اللَّفظِ واشتقاقِهِ.
خامساً: الاختلافُ بسببِ النظرِ إلى المعنى القريبِ المتبادرِ للذهنِ والمعنى البعيدِ للَّفظِ.

أوَّلاً: الاختلافُ بسببِ الاشتراكِ اللُّغويِّ في اللَّفظِ.

ألفاظُ العربِ تردُ على ثلاثةِ أقسامٍ:

الأوَّلُ: اختلافُ اللَّفظين لاخْتِلافِ المعنيين، وهذا هو الأعمُّ الأغلبُ في ألفاظِ العربِ؛ كقولك: الرَّجُلُ والمَرْأَةُ، واليومُ واللَّيلَةُ، اختلفَ اللَّفظانِ لاختلافِ المعنيين.

الثاني: اختلافُ اللَّفظين والمعنى واحدٌ؛ مثلُ: عَيرٍ وحِمَارٍ، وأتَى وجَاءَ، وفي هذا توسُّعٌ في الكلامِ وزيادةٌ في التصرُّفِ بالألفاظِ.

الثالث: أنْ يَتَّفِقَ اللَّفظُ ويختلفَ المعنى، فيكونُ اللَّفظُ الواحدُ على معنيينِ فصاعداً.

وهذا القسم أُطلِقَ عليه مصطلح: **المشترَك اللَّفظي**.

وأمثلةُ المشتَرَكِ اللُّغويِّ الذي وقع خلافٌ في تفسيره في القرآنِ كثيرةٌ، ومنها ــ على سبيل المثال

1 - اختلفَ المفسِّرونَ في تفسيرِ لفظِ «**النَّجْمِ**» من قولِه تعالى: {**وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ**} [الرحمن: 6] على قولين:

القول الأوَّلُ: النَّجمُ: ما نَبَتَ على وجهِ الأرضِ مما ليسَ له ساقٌ.

وهو قولُ ابنِ عَبَّاسٍ، وابن جبيرٍ والسُّدِّيِّ والكَلْبِيِّ ، وسُفْيان الثَّورِيُّ.

وأمَّا اللُّغويُّونَ، فقد حكى عنهم الأزهريُّ (ت:370) قولَهم، فقال: «وأمَّا قولُه جَلَّ وَعَزَّ: {**وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ**} [الرحمن: 6]، فإنَّ أهلَ اللُّغةِ وأكثرَ أهلِ التَّفسيرِ قالوا: النَّجْمُ: كلُّ ما نَبَتَ على وجهِ الأرضِ مما ليسَ له ساقٌ».

ومِمَّنْ نصَّ من اللُّغويِّينَ على تفسيرِ النَّجمِ بأنه ما لا ساق له من النبات: الفَرَّاءُ ، وأبو عُبَيدَةَ ، وابن قُتَيبَةَ.

القولُ الثاني: النَّجْمُ: نَجْمُ السَّماءِ.

وبه قال: مُجَاهِدٌ ، والحَسَنُ البَصْرِيُّ ، وقَتَادَةُ.

قال الزَّجَّاجُ (ت:311): «وقد قيل: إنَّ النجم ــ أيضاً ــ: يراد به النُّجُومُ. وهذا جائز أن يكون؛ لأن الله عزّ وجل قد أعلمنا أن النَّجْمَ يسجدُ، فقال: {**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ**} [الحج: 18].

ويجوزُ أن يكونَ النَّجْمُ ههنا، يعني به: ما نبتَ على وجهِ الأرضِ، وما طَلَعَ من نجومِ السماءِ، يقالُ لِكُلِّ ما طَلَعَ: قد نَجَمَ».

وهذا المثالُ يوضِّحُ أنَّ **الخلافَ الذي وقعَ، إنما كانَ بسببِ الاشتراكِ اللُّغويِّ في دَلالةِ لفظِ النَّجْمِ**، حيثُ يطلقُ النَّجمُ في لغةِ العربِ ويراد به ما نَجَمَ من الأرضِ، ويطلقُ ويرادُ به نَجْم السَّمَاءِ.

2- اختلفَ المفسِّرونَ في لفظِ «**تتلوا**» من قوله تعالى: {**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ**} [البقرة: 102] على قولين:

القول الأولُ: تتلوا: تقرأ.

وقال به من السَّلفِ: ابنُ عَبَّاسٍ ، ومُجَاهِدٌ، ومن اللُّغويين: أبو عبيدة ، وابن قتيبة.

القول الثاني: تتلوا: تتبع.

وبه قال من السَّلف: ابن عبَّاس، وأبو رَزِين الأسديُّ.

وقد بيَّنَ أبو جعفر الطبري (ت:310) هذا الاشتراك في هذا اللفظ، فقال: «ولِقَولِ القائلِ: هو يتلو كذا. في كلامِ العربِ معنيانِ:

أحدُهما: الاتِّبَاعُ؛ كما يقالُ: تَلَوتَ فلاناً؛ إذا مشيتَ خلفَه وتَبِعْتَ أثرَهُ، كما قالَ جَلَّ ثناؤه: {**هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ**} [يونس: 30] (7)؛ يعني بذلك: تتبع.

والآخرُ: القراءةُ والدِّراسةُ؛ كما تقولُ: فلانٌ يتلوا القرآنَ؛ بمعنى: أنه يقرؤه ويدرسُه.

و لم يخبِرْنا الله جلَّ ثناؤه ــ بأي معنى التِّلاوةِ كانت تلاوةُ الشَّياطينِ الذين تَلَوا ما تَلَوه من السِّحْرِ على عهدِ سُلَيمَانَ ــ بخبرٍ يقطعُ العذرَ.

ثانياً الاختلافُ بسببِ التَّضادِّ في دلالةِ اللَّفظِ.

الأضدادُ: الألفاظُ التي تأتي للمعنى وضِدِّهِ؛ كلفظِ «جَلَلٍ»: للشَّيءِ العظيمِ والشَّيءِ الحقيرِ.

والتَّضَاد نوعٌ من المشتركِ اللَّفظيِّ، قال قُطْرُبُ: «الوجهُ الثالثُ: أن يَتَّفقَ اللَّفظُ ويختلفَ المعنى، فيكونُ اللَّفظُ الواحدُ على معنيينِ فصاعداً ... ومن هذا: اللَّفظُ الواحدُ الذي يجيءُ على معنيينِ فصاعداً، ما يكون متضادًّا في الشَّيءِ وضِدِّهِ».

وقد اعتنى علماءُ اللّغةِ بهذه الظَّاهرةِ اللُّغويَّة في كلامِ العربِ، فألَّفوا فيها المؤلفاتِ، منهم: قُطْرُبُ (ت:206)، وأبو عبيدة (ت:210)، والتَّوَّزيُّ (ت:233)، وابنُ السِّكِّيتِ (ت:244)، وأبو حاتم (ت:255)، وابنُ الأنباريِّ (ت:328)، وغيرُهم.

أمثلةُ عن الأضدادِ التي وقعَ فيها خلافٌ:

1 - اختلفَ المفسِّرونَ في لفظِ «القُرْءِ» في قولِه تعالى: {**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ**} [البقرة: 228]، على قولينِ:

القولُ الأولُ: الحَيضُ، وبه قالَ عُمَرُ بن الخَطَّابِ ، وعَلِيٌّ بن أبي طالبٍ ، وعبد اللهِ بنُ مسعود ، وأبو مُوسَى الأشعريُّ ، وأُبَيُّ بنُ كعبٍ ، وابنُ عباس ، وسعيدُ بن جبيرٍ (ت:94).

القولُ الثاني: الطهر.

وبه قالَ زيدُ بنُ ثابتٍ ، وعائشةُ بنت الصِّدِّيقِ ، ومعاويةُ بنُ أبي سفيانَ، وعبدُ اللهِ بنُ عمرَ بن الخطاب ، وأبانُ بنُ عثمانَ بنِ عفانَ ، وسالمُ بنُ عبدِ اللهِ ، والزهريُّ .

وقدْ حكى اللُّغويُّونَ الذينَ كتبوا في معاني القرآنِ وغريبِهِ القولينِ، وممنْ حكاهُما: أبو عبيدة (ت:210) ، وابن قتيبة ، والزَّجَّاجُ.

2- اختلفَ المفسِّرونَ في لفظِ «عَسْعَسَ» من قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} [التكوير: 17] على قولينِ:

القولُ الأولُ: أدبرَ.

وممنْ قالَ به منَ السَّلفِ: عليٌّ ، وابنُ عَبَّاسٍ ، والضَّحَّاكُ، وقتادةُ ، وابنُ زيدٍ (ت:182) ، واختاره الطبريُّ (ت:310) .

القول الثاني: أقبلَ.

وممن قال به من السَّلف: مجاهدُ ، والحسنُ .

3- اختلفَ المفسرونُ في لفظِ «سُجِّرَتْ» من قوله تعالى: {**وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ**} [التكوير: 6] على أقوالٍ، ومنها قولانِ متضادَّانِ، وهما:

القولُ الأول: مُلِئت وفاضتْ. وبه قالَ: الرَّبيعُ بنُ خُثَيم (ت:61) ، والضَّحَّاكُ.

ومن اللُّغويِّينَ: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيبَةَ، وثعلب.

القولُ الثاني: يبستْ، وذهبَ ماؤهَا.وبه قالَ: الحسنُ البصري، وقتادةُ.

وقدْ حكى بعضُ علماءِ اللُّغةِ الذين كتبوا في الأضدادِ هذين القولينِ، كما حكاهما أصحابُ المعاجمِ اللغوية،قال أبو زيدٍ الأنصاريُّ (ت:215): «المسجورُ: يكونُ المملوءَ، ويكون الذي ليس فيه شيءٌ» وبهذا يظهر أنَّ مادَّة «سجر» ذات دلالتين متضادَّتين في لغةِ العربِ، والآيةُ تحتملُ هاتين الدِّلالتين، فقال مفسِّرٌ بأحدهما، وقال الآخرُ بالدِّلالة الأخرى، اجتهاداً منهما في اختيارِ إحدى الدِّلالتينِ، والله أعلم.

والمقصودُ: أنَّ التَّضادَّ الذي في دلالةِ الكلمةِ الواحدةِ كان سبباً في الخلافِ بينَ المفسِّرينَ.

ثالثاً الاختلافُ بسببِ مخالفةِ المعنى الأشهر في اللَّفظ.

يَرِدُ على اللَّفظِ في لغةِ العربِ احتمالُ الاشتراكِ، كما سبقَ، وقدْ تكونُ دلالةُ اللَّفظِ على المعنيينِ في درجةٍ قويَّةٍ من الاحتمالِ، وقبولِ السياقِ لهما، وقدْ تتفاوتُ هذه المعاني في هذا الاحتمالِ، فيكون اللَّفظُ دائراً بين معنيينِ أحدهُما أشهرُ وأظهرُ في معنى اللَّفظِ من الآخرِ. **وإذا دارَ الكلامُ بينَ هذينِ، قُدِّمَ الأشهرُ والأظهرُ من معاني اللَّفظِ، ومنْ أمثلةِ ذلك:**

1- ذكرَ الطبريُّ في قوله تعالى: {**وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً**} [يونس: 87] أقوالاً عنِ السَّلفِ:

القول الأول: وتَرْجَمَهُ بقوله: اجعلوا بيوتَكم مساجدَ تُصَلُّونَ فيها، وذكر ذلك عن ابنِ عباسٍ (ت:68)، وإبراهيمَ النَّخَعِيِّ، ومجاهدٍ، والضَّحَّاكِ وزيدِ بنِ أسلمَ (ت:136).

القول الثاني: اجعلوا مساجدكم قِبَلَ الكعبة، وذكر ذلك عن ابن عباس (ت:68)، ومجاهد (ت:104)، والضحاك (ت:105)، وقتادة (ت:117).

القول الثالث: وتَرْجَمَهُ بقوله: اجعلوا بيوتكم يُقَابِلُ بعضُها بعضاً، وذكر ذلك عن سعيد بن جبير (ت:94).

وقد اختار الطبريُّ (ت:310) **البيوتَ المسكونةَ**، فقالَ: «وأولى الأقوالِ في ذلك بالصَّواب، القولُ الذي قدَّمْنا بيانه، وذلك أنَّ **الأغلبَ منْ معاني البيوتِ ــ وإنْ كانتْ المساجدُ بيوتاً ــ البُيُوتُ المسكونةُ، إذا ذُكِرَتْ باسمِها المطلقِ، دونَ المساجدِ**، لأنَّ المساجدَ لها اسمٌ هي به معروفةٌ، خاصٌّ لها، وذلكَ: المساجدُ. فأمَّا البُيُوتُ المطلَقَةُ بغيرِ وصلِها بشيءٍ، ولا إضافتِها إلى شيءٍ، فالبُيُوتُ المسكونةُ. وكذلكَ القبلةُ، الأغلبُ من استعمالِ النَّاسِ إيَّاها في قِبَلِ المساجدِ للصَّلواتِ.

فإذا كانَ ذلكَ كذلكَ، وكانَ غيرَ جائزٍ توجيهُ معاني كلامِ اللهِ إلاَّ إلى الأغلبِ من وجوهِهَا، المستعملِ بين أهلِ اللِّسانِ الذي نزلَ به، دونَ الخفيِّ المجهولِ، ما لم تأتِ دلالةٌ تدلُّ على غيرِ ذلكَ ــ ولم يكنْ على قولِه: {وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} دلالةٌ تَقْطَعُ العُذْرَ بأنَّ معناه غيرُ الظَّاهرِ المستعملِ في كلامِ العربِ ــ لم يَجُزْ لنا توجيهُهُ إلى غيرِ الظَّاهرِ الذي وصفْنَا، وكذلك القولُ في: قِبْلَةً».

والمقصودُ هاهنا أنَّ ورودَ هذه المعاني المخالفةِ للمعنى الأشهرِ في مدلولِ اللَّفظِ عندَ العربِ كانتْ سبباً في حَمْلِ بعضِ المفسرينَ الآياتِ عليها. وإليك بعضَ الأمثلةِ على ذلكَ:

1- اختلف المفسرونَ في لفظِ «**ضَحِكَتْ**» من قوله تعالى: {**وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**} [هود: 71] على قولين:

القولُ الأولُ: أنَّ معنى ضَحِكَتْ: الضَّحِكُ المعروفُ.وهو قولُ الجمهورِ.

فمنْ أهلِ التَّفسيرِ من السَّلَفِ: عبد الله بنُ عَبَّاسٍ، ووَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ الصَّنْعَانِي، وقتادةُ.

ومن أهلِ اللُّغةِ: أبو زكريَّا الفَرَّاءُ، وأبو العباس ثَعْلَبٌ، والزَّجَّاجُ، النَّحَّاسُ.

القولُ الثاني: ضَحِكَتْ: حَاضَتْ.

وقدْ وردَ عنْ بعضِ السَّلفِ منهم: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدُ، وعكرمةُ.

ومن اللُّغويِّينَ: صاحبُ كتابِ العينِ، ونقل ابن قتيبة (ت:276) القولين ولم يعترضْ على هذا القول ، ونقل الطبريُّ هذا المعنى عنْ بعضِ البصريِّينَ مع شواهدِهِم عليه.

وقال أبو بكر بن دريد (ت:321): «وفي التَّنْزِيلِ: {**وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ**} [هود: 71] ذكرَ المفسِّرونَ أنَّها حَاضَتْ، واللهُ أعلمُ.

يقول مساعد سليمان الطيار: وسببُ هذا الخلافِ أنَّ المعنى الأوَّلَ ــ أي: الضحكَ ــ هو المشهورُ في دلالةِ اللَّفظِ، أمَّا الثاني فقليلٌ، ولذا أنكرَهُ بعضُ اللُّغويين، ولكنَّه إنكارٌ مردودٌ، إذ المُثْبِتُ مُقَدَّمٌ على النَّافي، ومنْ حفظَ حُجَّةٌ على منْ لم يحفظْ. **وهو مع ثبوتِه لغةً، أضعفُ في التَّفسيرِ منَ القولِ الأوَّلِ؛ لأنَّ المعنى المشهورَ مُقدَّمٌ على المعنى القليلِ.**

2- اختلفَ المفسرونَ في لفظِ «بَرْداً» منْ قولِهِ تعالى: {**لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا**} [النبأ: 24] على أقوالٍ، منها:

القولُ الأولُ: البَرْدُ: الهواءُ الباردُ الذي يُبَرِّدُ حرارةَ الجسمِ، ونُسِبَ إلى مقاتلِ بنِ سليمان، واختارَه الطَّبريُّ (ت:310)، وأبو جعفر النَّحَّاسُ. وقال المَاوَرْدِيُّ: «أنه بردُ الماءِ وبردُ الهواءِ، وهو قول كثيرٍ من المفسرين».

القولُ الثاني: البَرْدُ: النَّومُ، وقد نُسِبَ هذا القول إلى بعضِ السَّلَفِ، وهم: ابنُ عَبَّاسٍ ومجاهد.

وهو اختيارُ أبي عبيدةَ، وابنِ قُتَيبَةَ، وثعلب من اللُّغويِّين.

وعند النظر والتأمل فإن المدلولَ الأولَ الذي فُسِّرَ به لفظِ «البَرْدِ» أشهرُ في إطلاقِ اللُّغةِ من المدلولِ الثاني.

قال النَّحَّاسُ (ت:338)؛ «وأصَحُّ هذه الأقوالِ القولُ الأوَّلُ؛ لأنَّ البَرْدَ ليسَ باسمٍ من أسماءِ النَّومِ، وإنَّما يُحتَالُ فيه، فيقال للنَّومِ بَرْدٌ؛ لأنَّه يُهَدِّي العَطَشَ.

3- اختلفَ المفسِّرونَ في لفظِ «**يَنْصُرَهُ**» مِنْ قولِه تعالى: {**مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ**} [الحج: 15] على قولين:

القولُ الأوَّلُ: ينصره: يعينُهُ في الغَلَبَةِ على عدوِّهِ، وقال به من السَّلَفِ: قتادةُ ، وابنُ زيد، وقال به من اللُّغويين: الفرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والنَّحَّاسُ، والأزْهَرِيُّ.

القولُ الثاني: ينصره: يرزقه، وفي معنى الآية احتمالان:

الاحتمال الأول: ما قاله ابنُ عبَّاسٍ (ت:68) من أنَّ المعنى: منْ كانَ يَظُنُّ أنَّ اللهَ لَنْ يَرْزُقَ محمداً صلّى الله عليه وسلّم.

الاحتمال الثاني: ما قاله مجاهدُ بن جبر (ت:104) من أنَّ المعنى: منْ كانَ مِنَ النَّاسِ يظنُّ أنَّ الله لنْ يرزقه، فالضَّميرُ يعودُ على «مَنْ».

ومن اللُّغويِّينَ من فسَّر النَّصرَ بالرِّزقِ؛ كأبي عبيدةَ (ت:210)، وقد رجَّحَهُ الطَّبَرِيُّ.

وسببُ هذا الخلافِ أنَّ المعنيينِ واردانِ في هذه اللَّفظةِ، غيرَ أنَّ الأوَّلَ هو المعنى المشهورُ في اللَّفظةِ، لذا لم يردْ هذا الخلافُ في مدلولِ هذه اللَّفظةِ في القرآنِ إلاَّ في هذا الموضعِ؛ أي أنَّ الغالبَ في مدلولِها في القرآن: معنى التأييدِ والإعانةِ، وهو المعروفُ من معنى اللَّفظِ.

قال ابنُ عَطِيَّة: «والنَّصْرُ: معروفٌ، إلاَّ أنَّ أبا عُبَيدَةَ ذَهَبَ به إلى معنى الرِّزْقِ».

رابعاً: الاختلاف بسبب أصل اللَّفظ واشتقاقه.

والاشتقاقُ: عَوْدٌ باللَّفظِ إلى أصلِه لِيُنْبِئَ عن معناه. وبما أنه مفيدٌ في معرفةِ أصلِ الكلمةِ، فإنه يفيدُ كذلك في معرفةِ خطأ بعضِ التَّفاسيرِ الشَّاذَّةِ التي خرجَ بها قائلوها عن المعنى المعروفِ بسببِ دعوى باطلةٍ، ومن ذلك:

1 - ما وردَ عن بعضِهِم في تفسيرِ قولِ الله تعالى: {يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} [الإسراء: 71] بأنَّ **إماماً: جمعُ أُمٍّ**.

قالَ الزَمَخْشَرِيُّ (ت:538): «ومِنْ بِدَعِ التَّفاسِيرِ أنَّ الإمامَ جمعُ أُمٍّ، وأنَّ الناسَ يُدعونَ يومَ القيامةِ بأمهاتِهم، وأنَّ الحكمةَ في الدعاءِ بالأمهاتِ دونَ الآباءِ رعايةُ حَقِّ عيسى عليه السلام، وإظهارُ شَرَفِ الحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ، وأنْ لاَ يَفْتَضِحَ أولادُ الزِّنَى. وليتَ شِعْرِي، أيُّهما أبدعُ: أصِحَّةُ لفظِهِ، أمْ بَهاءُ حِكْمَتِهِ!».

2- اختلفَ المفسِّرونَ في تفسيرِ لفظِ «عِضِينَ» من قوله تعالى: {**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**} [الحجر: 91] على قولين:

القول الأول: عِضِين: فرَّقُوه فِرَقاً، وجعلوه أعضاءَ كأعضاءِ الجَزُورِ [أي: الجمل]، **فهو من العضو**.

وقالَ به منَ السَّلَفِ: حبرُ الأمَّةِ ابنُ عَبَّاسٍ، وسعيد بنُ جُبَير، ومجاهدٌ بن جبر، والضَّحَّاكُ

وممن قال به منَ اللُّغويينَ : الخَلِيلُ بنُ أحمدَ ، والفَرَّاءُ، وأبو عُبَيدَةَ، والأخفشُ .

القولُ الثاني: عِضِين: سِحْرٌ.

وورِدَ هذا التَّفسيرُ عن مجاهدٍ، وعِكْرِمَةَ، وقد أشارَ إلى هذا القولِ جَمْعٌ منْ أهلِ اللُّغةِ.

وسببُ هذا الخلافِ: اختلافُ النَّظرِ إلى أصلِ هذا اللَّفظِ واشتقاقِهِ، قالَ الأزهريُّ (ت:370) مبيناً ذلك: «وأمَّا قولُ اللهِ جلَّ وعزَّ: **{الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ}** [الحجر: 91]، فقدِ اختلفَ أهلُ العربيَّةِ في اشتقاقِ أصلِهِ وتفسيرِه، **فمنهم من قالَ**: واحدُها عِضَةٌ، وأصلُها عَضْوَةٌ، من عَضَّيْتُ الشَّيءَ: إذا فَرَّقْتُهُ، والمعنى: أنَّهم فرَّقوا ــ يعني: المشركون ــ أقاويلَهم في القرآنِ؛ أي: فجعلوه مَرَّةً كَذِباً، ومَرَّةً سِحْراً، ومَرَّةً شِعْراً، ومَرَّةً كِهَانَةً.

ومنهم منْ قالَ: أصلُ العِضَةِ عِضِهَةٌ، فاستثقلُوا الجمعَ بينَ هاءينِ، فقالوا: عِضَةٌ، كما قالوا: شفةٌ، والأصلح شَفَهَةٌ، وكذلك سَنَةٌ، وأصلُها: سَنَهَةٌ.

وقالَ الفَرَّاءُ: العِضُونَ في كلامِ العربِ: السِّحْرُ، وذلكَ أنَّه جعلَه من العِضْهِ، وَرُوِيَ عنْ عِكْرِمَةَ أنَّه قالَ: العِضْهُ: السِّحْرُ بلسانِ قُرَيشٍ. وهم يقولون للسَّاحِرِ: عَاضِهٌ، والكِسَائِيُّ ذهبَ إلى هذا».

2- اختلفَ المفسِّرونَ في لفظِ «**صلصال**» منْ قولِه تعالى: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ}** [الحجر: 26] على قولين:

القولُ الأولُ: الصَّلْصَالُ: الطِّينُ اليابسُ الَّذي إذا نَقَرْتَهُ صَلَّ؛ أي: أصدرَ صوتاً.وبه قالَ: ابنُ عَبَّاسٍ وقتادةُ، ومِنَ اللُّغويينَ: أبو عبيدةَ، وابنُ قتيبةَ، والزَّجَّاجُ.

القولُ الثاني: الصَّلْصَالُ: المُنْتِنُ، وبه قالَ مجاهد.

والقولُ الأوَّلُ جعلَ أصلَ الكلمةِ مِنَ الصَّلْصَلةِ؛ أي: الصَّوتُ، ومنه: صَلْصَلَةُ اللِّجَامِ، والحُلْيِ؛ أي: صوتُهُما، والصَّلْصَلَةُ: صَوتُ الرَّعْدِ إذا كانَ صَافِياً، ويقالُ لِلْفَرَسِ إذا كانَ حَادَّ الصَّوتِ: فَرَسٌ صَلْصَالٌ.

وأمَّا القولُ الثاني، فجعلَ أصلَه مِن صَلَّ الشَيءُ، إذا تغيَّرَ وأنْتَنَ.

قالَ الطَّبريُّ: «وقالَ آخرونُ: الصَّلْصَالُ: المُنْتِنُ، وكأنَّهم وجَّهوا ذلكَ إلى أنَّه مِنْ قولِهم: صَلَّ اللَّحْمُ، وأَصَلَّ: إذا أَنْتَنَ».

3- اختلفَ المفسِّرونَ **في لفظِ** «**مُسْتَمِرٌّ**» من قولِه تعالى: **{وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ}** [القمر: 2] على أقوالٍ، منها:

القولُ الأوَّلُ: مُسْتَمِرٌّ، ذاهبٌ وزائلٌ، وقالَ به منَ السَّلفِ: مجاهدُ بن جبرٍ ، وقتادةُ، ومِنَ اللُّغويِّينَ: الفَرَّاءُ والزَّجَّاجُ.

القولُ الثاني: مُسْتَمِرٌّ: شَدِيدٌ قَوِيٌّ، وقدْ نُسِبَ إلى أبي العَالِيَةِ، والضَّحَّاكِ بنِ مُزَاحِمٍ.

وممن قال به من أهلِ اللُّغةِ: أبو عبيدةَ ، وابنُ قتيبةَ .

ومن ثَمَّ، فإنَّ أصلَ اللَّفظِ على التَّفسيرِ الأوَّلِ: مَرَّ يَمُرُّ: إذا ذَهَبَ ، وأصلُه على التَّفسير الثَّاني: أنَّه مُسْتَفعِلٌ مِنَ الإمْرَارِ، مِنْ قولِهم: قدْ مَرَّ الحَبْلُ: إذا صَلُبَ وَقَوِيَ واشْتَدَّ.

وبهذه الأمثلةِ يظهرُ أنَّ التَّفسيرِ يختلفُ باختلافِ النَّظرِ إلى أصلِ اللَّفظةِ، وإنْ كانتْ صُورةُ اللَّفظِ في الأصلينِ تنتهي إلى صيغةٍ واحدةٍ.

خامسا: الاختلاف بسبب المعنى القريب المتبادر للذهن والمعنى البعيد للفظ.

إذا كان للفظ مدلولان، أحدهما قريب متبادر للذهن، والآخر بعيد، وسمعت متكلما يتكلم بهذا اللفظ، فإن الغالب أن يتبادر إلى ذهنك المعنى الظاهر القريب، دون المعنى البعيد الذي لا يوصل إليه إلا بتقليب النظر في المعاني المحتملة.

فلو قال قائل: اهجر فلانا، لذهب الذهن إلى معنى الترك، أي: اتركه وصحبته، لأن هذه الدلالة هي المعنى المتبادر القريب من الذهن في مدلول هذا اللفظ. وقد لا يخطر ببالك أن المراد هاهنا السب، وهو معنى آخر محتمل في دلالة هذا اللفظ.

والتفريق بين المعنى القريب والمعنى البعيد يمكن أن تكون كثرة الاستعمال هي المرجع في معرفته، فكثرة استعمال العرب لهذا اللفظ في هذا المعنى دون ذاك يجعله أقرب إلى الذهن من غيره عند ورود الاحتمال عليه في سياق من سياقات الكلام.

وقد وردت ألفاظ في القرآن حملها المفسرون على معان محتملة فيها، غير أن بعضها يكون أقرب إلى الذهن من بعض، لشهرته وكثرة استعماله في أحد معاني اللفظ.

ومن هذه الأمثلة التي وقع خلاف فيها بين المتأولين لكتاب الله، ما يأتي:

1 - اختلف المفسرون في لفظ الأعناق من قوله تعالى: {**إن نشا نترل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين**} [الشعراء: 4]، على أقوال:

القول الأول: أعناقهم: الأعناق المعروفة؛ أي: الرقاب.

وممن قال به من السلف: ابن عباس (ت:68) ، ومجاهد بن جبر (ت:104) ، وقتادة (ت:117).

ومن اللغويين: الفراء (ت:207) ، وأبو عبيدة (ت:210) ، ونسبه المبرد (ت:285) إلى عامة النحويين ، ورجحه الطبري (ت:310).

القول الثاني: أعناقهم: كبراؤهم وأشرافهم.

وقد نسبه الفراء (ت:207) إلى مجاهد (ن:104)، وقال به: قطرب (ت:206) ، وابن عزيز (ت:330).

القول الثالث: أعناقهم: جماعتهم.

وقال به بعض اللغويين: صاحب كتاب العين ، وأبو زيد الأنصاري (ت:215) ، وابن فارس (ت:395)، وقد نسبه النحاس (ت:338) إلى الأخفش (ت:215) ، كما نسبه الأزهري (ت:370) إلى أكثر المفسرين.

إذا تأملت هذه الأقوال، وجدت أن القول الأول الذي قال به السلف وجمع من اللغويين أقرب إلى الذهن من المعنيين الآخرين، وهما ــ مع كونهما محتملين ــ مرجوحان بسبب أن القول الأول هو الأقرب المتبادر للذهن، والله أعلم.

2 - اختلف المفسرون في لفظ الثياب من قوله تعالى: {**وثيابك فطهر**} [المدثر: 4] على أقوال، منها:

القول الأول: ثيابك: الثياب الملبوسة، ويكون ذلك بإبعاد النجاسة عنها.

وبه قال: ابن عباس (ت:68) ، والضحاك (ت:105) ، وعكرمة (ت:105) ، وطاوس بن كيسان اليماني (ت:106).

القول الثاني: أن الثياب: النفس، ويكون ذلك بتزكيتها، وعبر عنها بعضهم بقوله: «عملك فأصلحه، وكان الرجل إذا كان خبيث العمل، قالوا: فلان خبيث الثياب، وإذا كان حسن العمل، قالوا: فلان طاهر الثياب».

وورد هذا المعنى عن ابن عباس، والنخعي (ت:96) ، وعامر الشعبي (ت:103) ومجاهد بن جبر (ت:104) ، وعطاء بن أبي رباح (ت:114).

وقال به من اللغويين: الفراء (ت:207) ، وابن قتيبة (ت:276) ، والزجاج (ت:311).

وإذا تأملت هذه الأقوال، وجدت أن القول الأول هو القريب المتبادر للذهن، بخلافه القول الثاني الذي هو أبعد منه، إذ لا يتبادر إلى الذهن إرادته، وكلا القولين محتمل في الآية **والله أعلم**.